ISSN: 2170- 1636---EISSN 2600- 6324

دور قبائل المغرب الأوسط في الصّراع بين دول المغارب
خلال القرنين (7-8هـ/13-14م): قبيلة بني توجين أنموذجا

The Role of Central Maghreb Tribes in the Conflict between North African States from the 7th to the 8th Hidjri Century, and from the 13th to the 14th Gregory Century: Banou Toujin as model

✍المؤلّف الأول المرسل: لكحل زهيـرة - LAKHAL ZAHIRA صص140- 153
الدرجة والعنوان المهني: طالبة سنة رابعة دكتوراه ل.م.د- مشروع علاقات المغرب الأوسط بدول الحوض المتوسطي (2-10هـ)- قسم التّاريخ وعلم الآثار- كليّة العلوم الإنسانيّة والعلوم الإسلاميّة- جامعة وهران1 أحمد بن بلة./البريد الإلكتروني: lakhal.zahira@edu.univ-oran1.dz
✍د. قادة سبع- Sbaa Kada
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ- قسم التّاريخ وعلم الآثار- كليّة العلوم الإنسانيّة والعلوم الإسلاميّة جامعة وهران1 أحمد بن بلّة./البريد إلكتروني: aasebaakada@gmail.com

تاريخ الاستقبال: 2019/12/29 تاريخ المراجعة: 2020/01/20 تاريخ القبول: 2020/02/18

ملخّص: لم تأخذ العلاقات بين القبائل البربريّة طابع الاستقرار طيلة الفترة الوسيطية، وهو فعلا ما شهدته منطقة بلاد المغارب خلال القرن السّابع الهجري/الثّالث عشر الميلادي، بعد سقوط الخلافة الموحديّة التي دامت فترة حكمها من 541هـ/1146م إلى 668هـ/1269م، حيث نتجت عنه عدّة تغيرات على مستوى الخريطة السّياسيّة لبلاد المغارب، مع رغبة كلّ دولة من دوّله في الاستحواذ على ميراث الدّولة الموحديّة، فهذا الصراع الذّي تعدّدت فيه جهات وكيانات، فضلا عن بروز قبائل طمحت هي الأخرى في تأسيس كيانات سياسيّة مستقلّة عن الدّول الثّلاث النّاشئة (الزّيانيّة- الحفصيّة- المرينيّة).

وكانت قبيلة بني توجين الأنموذج الأمثل في الصّراع القائم بين دوّل المغارب، عن طريق عقدها اتّفاقيات ولاء وحلف مع من يخدم مصالحها، ويحقّق لها ذلك الدّور

PDF Creator Trial

الفعّال في العلاقات السّياسيّة خلال هذه الفترة التّاريخيّة؛ فظاهرة التّحالف بين السّلطة والقبائل البربريّة كانت أو عربيّة هي مِنْ تجليّات الدّول والإمارات.

الكلمات المفتاحيّة: القبيلة- التّحالفات- العصبيّة- الإمارة- بنو توجين- السّلطة- الدّولة الزّيانيّة- المغرب الأوسط.

ABSTRACT: *In the Middle Ages relations between the Berber tribes did not have an aristocratic character, something that the Maghreb region would experience during the seventh century of the hegira corresponding to the thirteenth century of the Christian era, after the fall of the Almohad state which reigned from 541h / 1146av to 668h / 1269 BC. This fall gave a new political map to the Maghreb with the appearance of three states: Zianide, Hafsid and Merinid who came into conflict over the heritage bequeathed by the Almohad state. In parallel with this action, tribes arose demanding the creation of political entities independent of the states mentioned above. Among the tribes let us quote that of the Beni Toudjines who allied by allegiance with the circles which best responded to their interest in order to concretize their active role in terms of political relations at that time. The Middle Ages in the Maghreb were also characterized by the appearance of the phenomenon of alliances between the authorities and the Arab or Berber tribes. The tribe played an important role in the various fields thanks to its military force, the Béni toudjines is the example, something which we will clarify by studying the conflict marking the relations between the Zianides; the merinides and hafsides.*

Keywords: The tribe- Benou toudjin- Authority- Banou abdelwads- The emirate.

مقدمة: شهدت منطقة بلاد المغارب خلال القرن السّابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) انقساما سياسيًا كبيرًا نتج عن تهاوي صرح الخلافة الموحديّة التي حكمت بلاد المغرب الإسلامي لمدّة تزيد عن قرن من الزّمن (541-668هـ/1146-1269م)؛ إذ يلحظ المتتّبع للخريطة الجيوسياسيّة لبلاد المغرب ظهور كيانات قبليّة سعت جاهدة إلى استغلال هذا الضّعف لتحقيق مشروعها السّياسي، وتأسيس دول مستقلّة، فملكت قبيلة بني عبد الواد[1] تلمسان ونواحي من المغرب الأوسط (وسط وغرب الجزائر حاليا) بداية من سنة 633هـ/1235م، كما استقلّت قبيلة بني حفص[2] بالمغرب الأدنى (تونس حاليا وجزء من شرق الجزائر: بجاية وقسنطينة تحديدًا) بداية من سنة 627هـ/1229م، بينما بسطت قبيلة بني مرين[3] سلطتها على المغرب الأقصى، بعد القضاء على الخلافة الموحديّة في سنة 668هـ/1269م.

PDF Creator Trial

نجم عن هذه التّحوّلات العميقة عدّة تغيرات طرأت على بنية العلاقات السّياسيّة بين دول المغارب التي قامت عقب نهاية الخلافة الموحديّة، حيث تميّزت هذه الفترة بالتّصادم والعداء بين هذه الدّول الرّاغبة في فرض سلطتها، وبسط نفوذها وهيمنتها على منطقة بلاد المغارب، وادّعاء كلّ واحدة منها أنّها الوريثة الشّرعيّة للتّركة الموحديّة، وكان هذا أحد العوامل التي أعاقت وأفشلت قيام وحدة سياسيّة جديدة ذات سلطة مركزيّة، خصّوصا في ظلّ انعدام الدّعوة الدّينيّة التي يعتبرها عبد الرّحمن بن خلدون أحد الأسّس الشّرعيّة والأساسيّة لقيّام الدّول في الفترة الوسيطيّة: المغاربيّة والمشرقيّة.

إنّ قيّام المُلك حسب هذا المؤرّخ لا يكون إلاّ إذا وُجدت عصبية قويةّ[4] تمثّل المحرّك الرّئيس للملك، والسّلطة فيها تقوم دول ناشئة، وبها تؤول إلى السّقوط، لكن الذّي يزيد الدّولة قوّة وجود الدّعوة الدّينيّة التي تعتبر بمثابة عامل أساسي آخر، بحيث يقول في هذا الشّأن: "إنَّ الدّعوة الدّينيّة تزيد الدّولة في أصلها قوّة العصبيّة التي كانت لها من عددها"[5]، كما يردف أيضا أنَّ "الدّولة العامّة الاستيلاء، العظيمة المُلك أصلها الدّين: إمّا من نبوّة أو دعوة حقّ"[6]، فكلّ من النّصين المصدريين يثبت أنّ غياب مثل هذه الدّعوة كان وراء تحوّل منطقة دول المغارب إلى ساحة صراع وتنافس، ونزاع بين القبائل بدل جمْع الكلمة، وتوحيد الصفّ، في إطار دولة موحّدة كبيرة وقويّة كي تواجه تحديّات هذه الفترة التّاريخيّة.

وصل ابن خلدون إلى هذه النّظريّة نتيجة معايشته للمجتمع الذّي عاش فيه، والذّي كان قبَليًا صِرْفًا، بحيث شكّلت القبيلة الوحدة الاجتماعيّة الأساسيّة التي قام عليها المجتمع المغربي؛ لذلك فالأُسَر التي حكمت كانت ذات طابع قبلي[7]، وظهرت إحدى القبائل البربريّة في خضّم هذه الظّروف، وكان لها تأثيرًا كبيرًا على الأحداث التي عرفتها السّاحة المغاربيّة هي: قبيلة بني توجين التي شاركت في الصّراع السّياسي بين دوّله؛ لِما بعد سقوط الخلافة الموحديّة.

وسنحاول من خلال هذا البحث التّعرّف على مظاهر التّنافس الشّديد الذي دار بين دوّل المغارب، وتطوّره إلى حدّ التّصادم العسكري الذّي حاولت استغلاله عدّة

PDF Creator Trial

قبائل بربرية وعربيّة، بحيث لم تكن الدّول القائمة تتناحر لوحدها على السّلطة السّياسيّة، ومن هنا فالمنطقة لم تعرف انفرادًا في الطّموح السّياسي؛ بل زاحمتها قبائل أخرى كان لها من القوّة ما يؤهّلها لتؤسّس كيانات مستقلّة لنفسها، فحاولت هي الأخرى تحقيق أطماعها في تكوين إمارات مستغلّة حالة اللاّ استقرار التي كانت تشهدها المنطقة، ولنا في قبيلة بني توجين خير مثال على ذلك، فقد أسهمت القبيلة في العلاقات السّياسيّة، والصّدامات العسكريّة في ظلّ التّنافس الزّيّاني- المريني من جهة، والزّيّاني- الحفصي من جهة أخرى، فكيف ساهمت القبيلة في الصّراع القائم بين دول المغارب آنذاك؟

قبل الإجابة عن هذا التّساؤل لا بدّ من التّعرّف، ولو بشكل مختصر، على بداية ظهورها على السّاحة السّياسيّة:

1- بنو توجين: التّسمّية والمجال: كانت قبيلة بني توجين إحدى أهمّ القبائل البربريّة، بحيث تنتمي إلى القبيلة الكبرى (زناتة)[8]، فضلا على اعتبارها "...من أعظم أحياء بني بادين..."[9] الذّين كان موطنهم بالواحات الصّحراويّة، حيث ظهر بنو توجين كقوّة سياسيّة وعسكريّة مع منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي)؛ لينتقلوا لاحقا- وبالتّدريج- نحو منطقة التّل رفقة أولاد عمومتهم بني عبد الواد، كما كانوا حلفاء للخلافة الموحديّة، فملكوا المناطق الممتدّة ما بين الصّحراء والتّل مشرقا: من المدية وسهل السّرسو وجبل وانشريس ومرات والجعبات، إلى سعيدة وجبل راشد غربا[10].

صارت التّخوم بينهم وبين بني عبد الواد تشمل سيق والبطحاء[11]، ونظرا لأهميّتها الاقتصاديّة، وبخاصّة الزّراعيّة عُدّت سببا في نشوب العداء والتّوتر بين بني عبد الواد وبين بني توجين لخصوبتها، وكثرة الكلأ والماء بها، كما اعتمدت أغلب بطونهم على تربية المواشي، والتّرحال بين التّل والواحات، إلى أن تغلّب العرب الهلاليون عليهم، وسيطروا على بعض مواطنهم الغربيّة، باستثناء جبل وانشريس، وامتدّ نفوذهم خلال النّصف الثّاني من القرن السّابع الهجري (الثّالث عشر ميلادي) حتّى أرض الزّاب[12] التي ملكوا منها بلدتي مقرة، وأوماش اللّتين أُقْتطِعَتَا لهم من طرف السّلطان

PDF Creator Trial

الحفصي المستنصر بالله (647-675هـ/1249-1277م)؛ نظير اشتراكهم معه في تحرير حاضرة تونس من يد النّصارى، و ذلك سنة 668هـ/1269م[13].

أورد أبو راس النّاصري، صاحب كتاب "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" بعض الإشارات المهمّة عن قبيلة بني توجين ومواقعهم، وبعضا من أمرائهم فقال: "...وأصْلُ مساكن توجين نواحي أنهار واصل، ثمّ صاروا من جبل راشد إلى دراك، وبلغت جنودهم ثلاثة ألاف فارس، ومنهم بنو تيغرين وبنو عزيز، ولبني تيغرين اعتزاز وتجبّر عظيم في القرنين التّاسع والعاشر...، وأرضهم بإزاء وانشريس، وأهل تلك الأرض يسمّونهم ويطلقون عليهم اسم الأجواد"[14].

ويضيف المؤلّف أيضا بأنّه أُخْبِرَ ممّن يثق فيه "...أنّه رأى تأليفا فيه ذِكْر بني بادين، وأنّ تجين اثنان: واحد شريف، وواحد من زناتة، وأنّ الشّريف يقال له: توجين بواو بعد تاء مضمومة، والله أعلم...، كما خرج من بني توجين ملوك عِظام، وخرج منهم كذلك أولياء كرام وفقهاء وأعلام"15.

وتدلّ المعطيات الجغرافيّة والرّوايات التّاريخيّة أنّ منطقة وانشريس أو ونشريس موطن بني توجين كان غنيًا بمعدن الزّنك، فـ"هذا الجبل جيّد التّربة، كثير العيون...، ويبلغ عدد المقاتلين فيه نحو عشرين ألفا"، وهو "كتلة جبلية تقع على الضّفّة الجنوبيّة لنهر شلف، وتشرف على هضبة السّرسو والهضاب العليا جنوبا، ويقابلها في الضّفّة الشمالية لنهر شلف جبال الظّهرة وزكار المشرفة على ساحل البحر المتوسط؛ تمتدّ من جبال الأطلس البُلَيدي شرقا، وتيارت وفرندة وزمورة غربا"[16].

لم تأخذ العلاقة بين القبائل البربريّة في المغرب الأوسط طابع الاستقرار طيلة الفترة التّاريخيّة نظرا للعداء المتولّد بين قبيلة بني توجين والدّولة العبد الواديّة؛ فلقد تجلّى بشكل واضح لدى القبائل الزّناتيّة التي ظلّت تمثّل قوّة رئيسة فعّالة بعد زوال الخلافة الموحديّة، مع التّنافس على المُلْك والاستقلال، وعدم الرّغبة في الخضوع لسلطة الآخر.

لقد شكّلت قبيلة بني توجين عامل أرَقٍ وتعب لسلاطين بني عبد الواد، حيث كانت حياتهم حروب مستمرة مع هذه القبيلة الرّافضة للخضوع لسلطتهم؛ كراهية في

PDF Creator Trial

الوحدة والانتظام[17]، كما لم تنفك هذه القبيلة عن دعم ومساندة القوى الخارجة عليهم، وذلك عن طريق مشاركتها الفعّالة مع الحفصيّين في الاستيلاء على مدينة تلمسان سنة 640هـ/ 1242م.

استغلّت قبيلة بني توجين العداء القائم بين دول المغارب الثّلاث على السّلطة، ومن مظاهر ذلك أن اتفق الأمير التّوجيني عبد القوي بن العباس[18] مع العباس بن منديل بن عبد الرّحمن أمير مغراوة[19]، وقصدا بني حفص بهدف تحريضهم وتشجيعهم على الاستيلاء على مدينة تلمسان، وإسقاط دولة بني عبد الواد (الزّيّانيّة)[20]، وأعطى ذلك الأمر فرصة للسّلطان أبي زكريا الحفصي لبلوغ مقصده، بفضل هذا التّعاون العسكري، حتّى يستطيع الحفصيون توسيع دائرة نفوذ دولتهم في الجهة الشّرقيّة من بلاد المغرب الأوسط، وعمليا انتهى الأمر باقتحام مدينة تلمسان، وترك السّلطان يغمراسن بن زيّان[21] العاصمة بيد الحفصيّين، فضلا عن عقد الصّلح بينهما، مع إعلان بني زيان تبعيّتهم السّياسيّة والعسكريّة للحفصيّين[22].

استطاعت قبيلة بني توجين أن تسيطر على جزء كبير من أراضي المغرب الأوسط، ممّا أسهم في نشوب العداء بينها وبين السّلطة الزّيّانيّة، بينما اتّسمت العلاقة بين هذه القبيلة والسّلطة الحفصيّة بالولاء والتّحالف؛ إذ يظهر جلّيًا ذلك حين غادر الحفصيون مدينة تلمسان، تاركين حلفائهم تحت قيادة أميرهم التّوجيني عبد القوي بن العباس حاجزًا يحمي حدود بني حفص من غارات بني عبد الواد مقابل منحهم مراسيم المُلْك من طرف الحفصيّين.

إنّ ظاهرة التّحالف بين السّلطة والقبائل البربريّة كانت أو عربيّة هي سمة الفترة الوسيطيّة؛ فبعد أن كانت القبيلة تستقرّ تشعر بقوّتها وأهميّتها العسكريّة، وهو ما يخوّل لها القيام بالأدوار العسكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة، وكذلك الاقتصاديّة؛ فدَوْر بني توجين كان فعّالا في مجال التّحالفات مع السّلطات الثّلاث النّاشئة، وهو ما سنبيّنه في مسألة الخلاف النّاشئ بين السّلطتين: الزّيّانيّة والمرينيّة.

3- موقف قبيلة بني توجين من الصّراع الزّيّاني- المريني: تباينت مواقف بني توجين بين الولاء والمناوءة لسلطة بني عبد الواد بتلمسان ونفوذ المرينيّين بالمغرب الأقصى،

PDF Creator Trial

مستغلّة رجحان كفّة سلاطين بني مرين على حساب أندادهم بني زيّان، سيّما خلال فترات انقطاع الدّولة الزّيّانيّة؛ الأمر الذّي يجعلنا نميّز طبيعة علاقة بني توجين مع الدّولتين الجارتين.

والمتتبّع للأحداث والتّطورات التّاريخيّة خلال هذه الفترة يلاحظ تغيرات في مواقف قبيلة بني توجين المتقلّبة بين الولاء والحلف، والمعارضة والمعاداة؛ فتجدها تقف موقف المتحالف والمؤيّد لبني عبد الواد بداية؛ لتّتخذ لنفسها موقف العدو الرّافض للخضوع لهم تارة أخرى، وهو الموقف المدعِّم لسلطة المرينيّين في صراعهم السّياسي والعسكري ضدّ بني عبد الواد، حيث تجسّدت مظاهر مواقفهم من خلال مشاركتهم في صراع دولتين لهما نفس الطّموح والأهداف التي سبق ذكرها، وهذا ما استغلّته قبيلة بني توجين.

لقد تجسّدت العلاقة العدائيّة بين بني عبد الواد وبني مرين في عدّة مواجهات عسكريّة؛ لأجل فرض السّلطة المطلقة على بلاد المغارب؛ إذ تواجَه الطّرفان في موقعة اسلي[23] الأولى سنة 647هـ/1249م، والتي يعود سببها إلى العلاقة التي جمعت الخليفة الموَحدي والسّلطان يغمراسن بن زيان، حيث وقف هذا الأخير إلى جانب الموحدين في حربهم ضدّ بني مرين، وقد اعتبرت السّلطة المرينيّة ذلك تآمرا عليها[24]، ممّا دفع السّلطان المريني أبي بكر بن عبد الحق[25] إلى مواجهته قرب وجدة، حيث استنفر السّلطان يغمراسن بن زيّان أنصاره من قبيلة زناتة الموالية له في حربه ضدّ المرينيّين؛ فنفر معه الأمير عبد القوي بن عطية بقومه من بني توجين[26].

جرت بين الطّرفين حروب عظيمة هُزم فيها السّلطان يغمراسن بن زيّان[27]، وظلّ طموحه يراوده ثانية في ضمّ المغرب الأقصى، والقضاء على سلطة منْ فيها من المرينيّين، حيث تواجه الطّرفان ثانيّة في كلدمان الواقعة ما بين تازة وأرض الرّيف سنة 657هـ/ 1258م، والتي استعان فيها السّلطان يغمراسن بقبيلة بني توجين؛ فخرج إليه السّلطان يعقوب بن عبد الحق من مدينة فاس، وألحق بهم الهزيمة[28].

لقد مثّلت قبيلة بني توجين إحدى القوى التي اعتمد عليها السّلطان يغمراسن بن زيّان في حروبه ضدّ المرينيّين؛ مُشَكِّلَةً بذلك إلى جانبه ثاني قوّة عسكريّة مع قوّة

PDF Creator Trial

جيشه، فبالرّغم من الدّعم العسكري الذّي قدّمته هذه القبيلة إلى السّلطان يغمراسن، إلاّ أنّه لم يتمكّن من تحقيق ما طمح إليه، وباءت جهوده كلّها بالفشل، حيث توالت الهزائم عليه؛ فقبيلة بني توجين لم تظّل على موقفها السّابق؛ إذ انقلبت إلى موقف داعم لأعداء بني زيّان، وبهذا تكون قد أحسنت استغلال التّنافس الموجود بين دول المغارب خلال هذه الفترة.

لقد أجمع المؤرّخون على مواقف بني توجين من خلال مشاركتهم إلى جانب بني مرين الذّين قضوا على السّلطة الموحديّة، ثمّ وجّهوا أنظارهم للقضاء على سلطة بني عبد الواد (الزّيّانيّة)، وأثناء ذلك جهّز السّلطان يعقوب بن عبد الحق المريني حملته على مدينة تلمسان، ولقيّ فيها دعم ومشاركة قبيلة بني توجين بموقعتي إيسلي الثّانيّة سنة 670هـ/1271م، وموقعة خرزوزة سنة 680هـ/1281م.

أعدَّ السّلطان يعقوب بن عبد الحق المريني جيشا ضخما سنة 670هـ/1271م خرج به من مدينة فاس، وفي طريقه إلى مدينة تلمسان وَافَاهُ رسول السّلطان ابن الأحمر يطلب منه نصرة الإسلام؛ فاتّخذ موقفا آخر من السّلطان الزّيّاني؛ إذ اقترح من خلاله التّصالح مع السّلطان يغمراسن بن زيّان، ولكن هذا الأخير رفض عرض الصّلح، وانتهى الأمر بالتقاء الطّرفين في واد ايسلي، حيث تكبّد السّلطان الزّيّاني خسائرًا فادحة بعد أن مُنّي بهزيمة نكراء كان من تداعياتها فراره إلى مدينة تلمسان، واقتفى السّلطان المريني أثره فحاصر عاصمته، وهو الحصار الذّي شاركت فيه قبيلة بني توجين.

أورد ابن أبي زرع الفاسي بعض حيثيّات هذه المشاركة الفعّالة، والتّاريخيّة المتبوعة بردّ فعل السّلطان المريني؛ فقال: "ووصل إليه محمّد بن عبد القوي التّوجيني في جيش كثيف من قبائل تجين (توجين) والبنود، والعدد السّنيّة؛ فركب أمير المسلمين إلى لقائه في جميع جنوده وأبطاله، في أحسن زينة وأتمّ احتفال؛ فاشتدّ الحصار على يغمراسن"[29]؛ فاعتُبر هذا الحصار المريني فرصة للأمير التّوجيني للثّأر من السّلطان يغمراسن؛ على ما كان يشنّه من غارات سابقة على قبيلته؛ فراح يحطّم المزارع والقرى ويخرّبها، ثمّ إنّ أفضل من وصف هذا الفعل المدمّر في أحسن صورة،

PDF Creator Trial

وأبْلَغَ وصْف هو التّنسي القائل بأنّهم: "قطعوا الثّمار، ونسفوا الآبار، وخرّبوا الرّبوع، وأفسدوا الزّروع، ولم يدَعوا بتلك الجهات قوت يوم حاشا السّدرة والدّوم"[30].

لقد طال حصار مدينة تلمسان من طرف جيوش السّلطان المريني، ولم يتمكّن بنو مرين من اقتحامها لحصانتها؛ فقرّر رفع الحصار والانسحاب، وطلب من الأمير التّوجيني عبد القوي الرّجوع إلى بلاده، بعد أن اطمأّن على أنّ بني توجين سيصلون إلى ديّارهم آمنين سالمين، بعد أن أغدق عليهم العطايا من الخيول والجمال والأموال، وبعث معهم من يوصلهم لديّارهم، ثمّ مضى ومن معه إلى المغرب الأقصى..."[31].

تطوّر الوضع قبل موقعة خرزوزة سنة 680هـ/1281م، حيث بادر السّلطان المريني مجدّدًا بطلب الصّلح من السّلطان يغمراسن بن زيّان، وذلك سنة 679هـ/1280م، بعدما علم بالتّقارب والتّحالف الذّي تمّ بين بني عبد الواد وبني الأحمر الذّي كان الهدف منه ضرْب بني مرين، وصرْف أنظارهم عن الجواز للأندلس، لكن السّلطان يغمراسن رفض الصّلح ثانيّة، وجدّد السّلطان المريني طلب الصّلح مرّة أخرى شريطة عدم التّعرّض لبني توجين قائلا:

فَلْتَتْرُكِ النَاسَ إِلىَ جِهَادِهِمْ مُــؤَمِّلِينَ فِي حِمَى بِـلاَدِهِـمْ
وَاقْعُدْ وَلاَ تَنْهَضْ إِلىَ تُوجِينْ فإِنَهاَ فِي العَهْدِ مَعَ بَنِي مَرِينْ[32]

يبيّن لنا هذا مدى تقارب الطّرفين، ومناصرة بني توجين لهم، مع إصرار السّلطان الزّيّاني يغمراسن على الرّفض ثانيّة بقوله: "والله ما كففتُ عن تجين (توجين)، ولو رأيتُ النّفس في سجّين؛ فليصنع ما بدا له، وليتأهّب للحرب، فهي أوّلاً له"[33].

هكذا انطلقت شرارة الحرب؛ والتقى الجمعان في خرزوزة، فكانت خاتمتها أنْ هُزِم السّلطان يغمراسن مجدّدًا أمام قوّة بني مرين، وأعْقب ذلك مباشرة أن ضربوا حصارًا على مدينة تلمسان؛ لينضمّ إليهم الأمير التّوجيني محمّد بن عبد القوي مع قومه، ويلتقي رفقة جيشه بناحية القصبات[34]؛ فكان أن دمّروا وخرّبوا، وأفسدوا ونهبوا، وأكلوا زرعها، ثمّ أمر بني توجين بالرّجوع إلى بلادهم بالونشريس، وبقيّ

PDF Creator Trial

السّلطان المريني بتلمسان حتّى وصل بنو توجين إلى ديّارهم؛ خوفا من ملاحقة السّلطان يغمراسن لهم؛ ليدخل بعدها مدينة فاس سنة 681هـ/1282م[35].

يتبيّن لنا من خلال ما تطرّقت إليه أنّ قبيلة بني توجين كانت تُكِّنُ عداوة شديدة لبني عبد الواد (الزّيّانيّين)؛ فلم تتوان في دعم أعدائهم المرينيّين الذّين تفوّقوا عدّة وعددا، وشكّلوا إلى جانبهم قوّة عسكريّة أدّت إلى عدم تكافؤ القوى بين الطّرفين جعلت بنو عبد الواد (الزّيّانيّين) يتلقّون هزائم فظيعة متتاليّة، وزادت في أطماعهم لتحقيق مبتغاهم في السّيطرة على منطقة المغرب الأوسط وبلوغ المغرب الأدنى، وفرْض سلطتهم المطلقة على بلاد المغارب كلّها.

في الوقت نفسه تكون قبيلة بني توجين قد نالت نظير مساهماتها العسكريّة ضدّ السّلطة الزّيّانيّة منافعًا عدّة منها: ثروات ساعدت في بناء إمارتها، فضلا عن جعْل سلطة بني عبد الواد تغيّر من سياستها الخارجيّة لاحقا، وذلك بمهادنة بني مرين إلى حين، ثمّ إنّ ما شهدته المنطقة من صراعات داخليّة ضدّ قبيلة ضعيفة أو قويّة أو ضدّ حِلف يضمّ مجموعة من القبائل المتحالفة: بربريّة كانت أو عربيّة؛ إنّما هدفه كان توسيع المجال، وضمّ الأراضي الخصبة، والمجالات الرّعويّة الفسيحة، والرغبة في الإشراف والسّيطرة على الطّرق التّجاريّة[36].

إنّ الدّخول في مجال هذه الصّراعات يؤدّي بالضّرورة إلى إضعاف بعض القبائل، وتحوّلها إلى قبائل غارمة ضعيفة، ممّا ترتّب عنه حالات من التّفرّق والانقسام بين القبائل الكبرى (الزّيّانيّة- الحفصيّة- المرينيّة)؛ فهذه القبائل المِحوريّة التي ظلّت تسعى في طلب موالاة القبائل الصّغرى مع زعاماتها، تبقى قبيلة بني توجين هي نموذج ذلك الصّراع المحتدَم باستمرار في بلاد المغارب من ناحية.

ومن ناحية أخرى قد يَلمسُ المتمعّن في تلك الانعكاسات المترتّبة عن المعارك، والحروب الآنفة الذّكر بإيجابية؛ لِما تفرزه من عمليات اندماج القبائل الضّعيفة، وتحالفها مع "الآخر" بهدف تحقيق مصالحها المشتركة التي وردت عند ابن خلدون بعبارة " المساهمة والمشاركة"؛ أي المشاركة في الثّروات، والمساهمة في السّلطة السّياسيّة[37].

PDF Creator Trial

خاتمة: لعلّه من المفيد في خاتمة هذا البحث التّذكير بأنّه بعد دراستنا "لموقف قبيلة بني توجين" يتبيّن أنّ هذه القبيلة البربريّة سعت إلى إعلان ولائها ومسالمتها لمن ظهرت قوّته، وقوِيَ أمره، وإعلان الطّاعة والولاء، والانحياز لمن فرض سلطته، مقابل الحفاظ على إمارتها بجبل الونشريس.

وما يمكن استخلاصه حول دور قبيلة بني توجين في صراع دول المغارب أنّها قامت بدورٍ بارزٍ في تاريخ بني عبد الواد منذ قيامها، حيث تذبذبت مواقفها بين الولاء والعداء، حسب ما اقتضته مصالحها، وشكّلت قوّة عسكريّة ثانيّة إلى جانب أعداء بني عبد الواد، وهو ما استفادت منه قبيلة بني مرين ودولة بني حفص.

لقد مثّلت قبيلة بني توجين نموذجا مهمًّا لدراسة البِنية القبليّة لبلاد المغارب زمن حكم الأسَر البربريّة؛ فالقبيلة كانت تمثّل دوما مصدر القوّة والسّيطرة والتّوسّع، كما كان لزاما على أيّ سلطة ناشئة أو أخرى تريد الاستمرار في الحكم أن تعرف طبيعة تكوين مجتمع القبائل، وتلك الرّوح العصبيّة المهيمنة داخلها، وما تضمره من رغبات في الأمن والسّيادة، ثمّ إنّ معرفة تلك الطّبيعة يجعل من القبيلة أداة ذات فعالية في يد السّلطة؛ فعن طريق القبيلة تقوى السّلطة وتتدعّم، وبالقبيلة نفسها يمكن لتلك السّلطة أن تنهار وتتلاشى.

كما كانت الأنظمة السّياسيّة في بلاد المغارب تعتمد بشكل كلّي على استغلال وتوظيف المتغيّرات المشكّلة للنّظام القبَلي عكس الأنظمة التي كانت تعتمد على الجيوش النّظاميّة والمؤسّسات السّياسيّة والاقتصاديّة المتماسكة؛ فالقبيلة تشكّل عنصرًا مؤثّرًا في تشكيل المنظومة السّياسيّة التي تُحْسن استغلال المتغيّرات القَبَليّة.

الهوامش:

1- بنو عبد الواد: أحد فروع الطّبقة الثّانيّة من قبيلة زناتة، سمّوا كذلك نسبة إلى عابد الوادي، وتعود شجرتهم النّسَبيّة إلى زحيك بن واسين بن ورشيك بن جانا، كما ينحدرون من عدّة بطون بنو ياتكين، وبنو وللو، وبنو ورصطف، ومصموحة، وبنو تومرت، وبنو القاسم، فأوّل مؤسّس لدولتهم يغمراسن بن زيّان بن ثابث، بويع له سنة 633هـ/1235م، وتوفيّ سنة 681هـ/1283م. يحي ابن خلدون أبو زكريا، بغية الرّوّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد جاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، ط2011، ج1ص207/أبو زيد عبد الرّحمان بن محمّد بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبدإ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، المكتبة العصريّة، صيدا وبيروت، 2013، مج2 ص2109/محمّد بن عبد الله التّنسي، تاريخ بني زيّان ملوك

PDF Creator Trial

تلمسان مقتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيّان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1985، ص109.

2- بنو حفص: نسبة إلى أبي حفص عمر بن يحي الهنتاتي، من قبائل المصامدة، كانوا السّبّاقين لدعوة المهدي بن تومرت، امتدّ نفوذ الحفصيّين، حتّى بلاد إفريقيّة شرق الدّولة الزّيّانيّة، يعد أبو زكريا الحفصي المؤسّس الحقيقي للدّولة الحفصيّة سنة 625هـ/1227م. ابن الشّماع- الأدلة البيّنة في مفاخر الدّولة الحفصيّة، تقديم و تحقيق الطّاهر بن محمّد المعموري، الدّار العربيّة للكتاب، تونس، 1984م، صص48-49/ابن قنفد القسنطيني، الفارسيّة في مبادئ الدّولة الحفصيّة، تقديم وتحقيق محمّد الشّاذلي النّيفر وعبد المجيد التّركي، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، 1968م، صص100-107.

3- بنو مرين: من بطون زناتة، وهم أولاد عمومة بني عبد الواد، جدّهم مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن يدر، قضوا على دولة الموحدين بإسقاط مراكش عاصمتهما سنة 668هـ/1269م. ابن أبي زرع الفاسي، الذّخيرة السّنيّة في تاريخ الدّولة المرينيّة، دار المنصور، الرّباط، 1972م- ص14-15/ابن سّماك العاملي، الحلّل الموشيّة في ذِكر الأخبار المراكشيّة، دراسة وتحقيق بوباية عبد القادر، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2010م، ص283-284/إسماعيل بن الأحمر، روضة النّسرين في دولة بني مرين، مطبوعات القصر الملكي، الرّباط، 1962، ص8-9/ابن خلدون- المصدر نفسه، ج7 ص197.

4- العصبية: تعدّدت تعاريفها وتنوّعت، حيث جاء في تهذيب اللّغة "والعصبيّة أن تدعو الرّجل إلى نصرة عصبيّته، والتّألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين"، وعرّفها ابن خلدون بأنّها "النّعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيْم أو تصيبهم هلكة، ...ومن هذا الباب الولاء والحلف؛ إذ نعرة كلّ أحد على أهل ولائه وحلفه"، أمّا التّعريفات الحديثة عَرّفَها الجابري أنّها "رابطة- اجتماعيّة- سيكولوجيّة (نفسيّة) شعوريّة ولا شعوريّة معا، تربط أفراد جماعة ما، قائمة على القرابة، ربطا مستمرًّا يبرز، ويشتدّ عندما يكون هناك خطر يهدّد الأفراد كأفراد أو كجماعة"، إنّ القبيلة هي القوّة الجماعيّة التي تمنح القدرة على المواجهة، وتنتقل بها من مرحلة التّشتّت إلى إطار أكثر اتّساعا متمثّلا في نظام "الحِلف". الأزهري أبو منصور محمد- تهذيب اللّغة- تحقيق محمّد علي نجار- الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة- القاهرة- ج2 ص49/ابن خلدون- المصدر نفسه- مج1 ص72/محمّد علي الجابري- فكر ابن خلدون العصبيّة والدّولة- مركز دراسات الوحدة العربيّة- بيروت- ط5- 1992- ص167/عدّة الشّيخ- العصبيّة الدّينيّة دورها في قيّام وأفول الدّولة الإسلاميّة المرابطيّة نموذجا- رسالة ماجستر- جامعة وهران- قسم الفلسفة- 2011-2012- ص15 وما بعدها/محمّد بن حسن- القبائل و الأرياف المغربيّة في العصر الوسيط- دار الرّياح الأربع للنّشر- تونس- ط1- 1986م- ص13.

5- ابن خلدون- نفسه- مج1ص89/أكّدت الدّراسات التي فسّرت نظرية ابن خلدون مدى تفاعل الدّعوة الدّينيّة، والعصبيّة القبليّة في نشأة وتطوّر الدّولة، حيث يوجد صنف من البدو لا تقوم له دولة إلاّ بدعوة دينيّة، وصنف آخر تزيد الدّعوة الدّينيّة قوّة، واتّساعا لا يحصلان عليه بعصبيتهم لوحدها. منير شواكري- أسّس قيّام الدّولة في المغرب الإسلامي وفق نظرية ابن خلدون- الدّولة الموحديّة نموذجا(510-558هـ-1116-1163م) رسالة ماجستير- جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان- 2013-2014- ص141.

6- ابن خلدون- المصدر نفسه- مج1ص89.---- 7- منير شواكري- المرجع نفسه- ص73.

8- زناتة: قبيلة مغربيّة تضمّ عدّة بطون سمّاها ابن خلدون بشعوب زناتة، وقد نسب عدّة مؤرخين أنّها من أصول سامية، و تتواجد أكثر بطونهم بالمغرب الأوسط. ابن خلدون- المصدر نفسه- مج2 ص2098 وما يليها.

PDF Creator Trial

9- نفسه- مج2- ص2168/خالد بلعربي، الدّولة الزّيّانيّة في عهد يغمراسن "دراسة تاريخيّة و حضاريّة (633-681هـ/1235-1282م)، دار الألمعيّة، الجزائر- 2011- ص137.

10- ابن خلدون- نفسه- مج2 ص2171/ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط من كتاب أعمال الأعلام، القسم الثّالث، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمّد إبراهيم الكتّاني، دار الكتاب، الدّار البيضاء-1964- صص167-168/بخدة طاهر، الهجرة في المغرب الأوسط: واقعها وأثارها من منتصف القرن السّادس إلى القرن الثّامن الهجري/12-14م، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، قسم التّاريخ وعلم الآثار، 2016-2017، ص88 .

11- البطحاء: مدينة كبيرة متحضّرة بناها الأفارقة، قريبة من تلمسان بمقدار ثلاثة أو أربعة أيّام، مشهورة بالقمح وفّرت دخلا كبيرا لملك تلمسان. الحسن الوزّان، وصف إفريقيا، ترجمة، محمّد حجي ومحمّد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ج2 ص27-28/ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط2، 2011م، مج1ص529.

12- الزّاب: إقليم شاسع واقع بوسط نوميديا، ويمتدّ غربا من تخوم مسيلة، حتّى بلاد الجريد (من تونس) شرقا، ومن جبال بجاية شمالا، حتّى القفار المقطوعة بطريق تقرت- ورقلة. الحسن الوزّان، المصدر نفسه، ج2، ص128/المقدسي- أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم- علّق عليه ووضع حواشيه- محمّد أمين الضّناوي- دار الكتب العلميّة- بيروت- ط1-2003. ص181.---- 13- ابن خلدون: المصدر نفسه- مج2 ص2170.

14- أبو راس النّاصري- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق محمّد غالم، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيّة الاجتماعيّة والثّقافيّة، وهران، الجزائر، 2008، ص64.---- 15- المرجع نفسه، ص67.

16- الحسن الوزّان، المصدر السابق،ج2- ص45.---- 17- بوزياني الدّراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزّيّانيّة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ص205.

18- عبد القوي بن العباس التّوجيني: من بني مكنوش، ترأّس، كان له رياسة بني نوجين عند انقراض أمر بني عبد المؤمن، و اتّخذ من جبال الوانشريس عاصمة لإمارته، ابن خلدون، المصدر نفسه، مج2-ص2168.

19- مغراوة: أهل شدّة وغلبة في بطون زناتة، ينسبون إلى مغراو بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا، فهم إخوة بني يفرن، كانت مجالاتهم بأرض المغرب الأوسط، من شلف حتّى تلمسان وجبل مديونة، وأقاموا الدّعوة للموحدين إلى غاية وصول أبي زكريا الحفصي بلادهم سنة 632هـ/1234م، فبايعوه مخالفة لبني عبد الواد، هذا ما دفع يغمراسن إلى مواجهتهم، ودخول أراضيهم، فاستنجدوا بالسّلطان الحفصي الذّي عيّن عليهم العباس بن منديل رئيسا، ومنحه الاستقلال الدّاخلي بدليل اتّخاذه شارة الملك. ابن خلدون، المصدر نفسه، مج7 ص2077/خالد بلعربي، المرجع سابق، ص135-136.---- 20- المصدر نفسه-مج2-ص 2114.

21- يغمراسن بن زيّان، أوّل من استقلّ بمدينة تلمسان من سلاطين بني عبد الواد، وأوّل من خلط زيّ البدواة بأبّهة الملك، بويع سنة 633هـ/1236م، وتوفيّ في طريقه إلى تلمسان عائدا من مدينة تونس سنة 681هـ/1282م. يحيى بن خلدون، المصدر سابق، ج1 ص204/ابن خلدون، المصدر نفسه- مج2 ص2113 وما يليها.

22- خالد بلعربي- المرجع السابق- ص153/بورملة عربية- إمارة بني توجين بالونشريس من خلال كتاب العبر لعبد الرّحمن ابن خلدون- مذكرة ماجيستار- قسم الحضارة الإسلاميّة- جامعة وهران1- 2009-2010م- صص73-74.

23- إيسلي: الواقعة شرقي أرشجول القريبة من وهران، مدينة محصّنة، وذات بساتين وثمار. الحميري، الرّوض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص58.

24- ابن خلدون، المصدر نفسه،مج2،ص2181/خالد بلعربي، المرجع نفسه،ص158.

PDF Creator Trial

25- أبو بكر بن عبد الحق: يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن أبي حمامة بن محمّد الزّناتي، ولد سنة 607هـ/1210م، وقيل: سنة 609هـ/1212م، يكّنى أبا يوسف، كان شخصا حسن السّيرة، حليما متواضعا، لم تهزم له قطّ راية، وكان مكرّما للعلماء، بويع سنة 656هـ/1258م، وتوفيّ سنة 685هـ/1286م. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص297-298/ابن ابي زرع، الذّخيرة السنية، ص64/روضة النسرين، صص17-19.---- 26- ابن خلدون، نفسه، مج2 ص2117/ابن أبي زرع، الذّخيرة السّنيّة، ص76.---- 27- ابن أبي رزع، الأنيس المطرب، ص295.

28- ابن خلدون، نفسه، مج2 ص2117/ابن أبي رزع، الذّخيرة السّنيّة، ص 89.---- 29- ابن أبي زرع الفاسي، الذّخيرة السّنيّة، ص132.

30- ابن الأحمر، تاريخ الدّولة الزّيّانيّة بتلمسان، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، بورسعيد، 2001م، ص23/ابن أبي رزع، المصدر نفسه، ص132/خالد بلعربي، المرجع السابق، صص163-164/بورملة عربية- المرجع نفسه- صص75-76.---- 31- ابن الأحمر، المصدر نفسه، ص23.---- 32- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص335-336.

33- المصدر نفسه، ص336.

34- تاريخ الأمازيغ والهجرة الهلاليّة مقتطف من كتاب العبر لابن خلدون مع دراسة قبائل البافور الغامضة، تحرير وتعليق حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلميّة، بيروت، مج2،ص 234.

35- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص337.---- 36- أمين كرطالي- سلطة شيوخ القبائل العربيّة في المغرب الأوسط- أطروحة دكتوراه في التّاريخ الوسيط- جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله- 2017-2018م- ص144.

37- محمّد بن حسن- المرجع السابق- ص13.

PDF Creator Trial